الشيخ عبد الحليم محمود

من مزايا الدكتور عبد الحليم محمود أنه يتكلم بِصَمْته كما يتكلّم بلسانه، فأنت تجلس معه، وهو سابحٌ فى فكره، وكأنّه فى الخلوةِ التى اعتاد أن يفىءَ إليها من هجير الحياة تجْلسُ معه صامتًا فتقرأ فى ملامح وجهه وفى بريق عينيه، وفى انطلاقِ بَسمتْه حديثًا موجّهاً إليك، مع أنّه يشتغل بتسبيح وذكرٍ، إذ يده تحرّك مسبحته، ولستُ وحدى الذى يحسُّ ذلك، بل أكثرُ مريديه يدركون ما أدرك.

وحين جاءهَ اليقين، وهرعتُ إلى محفل الوداع، وتقابَل الأصدقاُء والأهل، كانتْ مظاهر الهدوء الصامت تغلبُ مظاهر الحزن الناطق، لأن شعورًا خاصا سَيْطَر على الناس بأن الرجل قد انتقل من مصرَ إلى الجنّة فى مقعد صدقٍ، وكيف يحزنُ أحد لمن حظى برضوان الله، ثم استمعنا إلى مَن أخبرنا أن الرجل فى ساعاته الأخيرة طُلبَ منه أن يتهيأ لعملية جراحة، فابتسمَ، ثّم استسلم راضيًا، وحين أدركَ نهايتَه صاح فى المجتمعين: الله حقّ، الموت حق!! لقد كانَ يعلم أن الإنسانَ فى معترك الحياة يتأهب للرحلة الطويلة، ولابَّد منها، فلما حانَ موعدها، جزمَ بأنّها حق لامريةَ فيه، وعليه أن يستقبلها ببشر وابتهاج.

أول لقاء:

كانَ الأستاذ مُدرسًا للأخلاق فى كلية اللّغة العربيّة، وكانَ الطّلاب يحبّون درسه، ويعجبون باتجاهه الروّحى، حتى كثر الحديث عن سعادتهم به، وجاء أحد الأساتذة الذين يدرّسون البلاغة فى الكلية، فاستمع إلى أحاديث الإعجاب، ثم دفعه التسّرع العاجل، فقالَ: وماذا فى درس الأخلاق من الجدّة والابتكار؟ إنّ كلّ

خطيب مسجد يتحدث كلّ يوم عن الأخلاق، ولا يُمكن أن يأتى مدرسُها بجديد، وكنتُ أستمعُ إلى القائل، فقلتُ: ياسيّدى، الأخلاق فى الدراسات العالية بكليّات الجامعة جزءٌ من أجزاء الفلسفة، وقضايا الشّر والخير، والمسئولية والجزاء، والالتزام والإهمال، والحق والواجب، كلّ هذه القضايا الشائكة مُعترك يخوُض فيه أساتذة الأخلاق سابحين، ولهم أدلتهم العقليّة، ويزيد عليها الشيخ عبد الحليم أدلةً نقلية يلتمسها فى القرآن والحديث وسير السابقين من ذوى الفضل، وأدلّة ذوقية يلتمسها من أحاسيسه المؤمنة، وأشواقها المتوهجة، فكيف تقولُ إن خطيب المسجد فى الرّيف يقوم بما يقوم به أستاذ الأخلاق فى كلية جامعيّة! قالَ الشيخ: وهل تخرج الدروس عن الصّبر والورع والأمانة والإخلاص، فقلت إنّ مدرس المدرسة الابتدائية يتحدث فى النحو عن الفاعل والمفعول به، وأستاذ الدراسات العليا بالجامعة يتحدّث عن الفاعل والمفعول به فى النحو، فهل يتقاربُ الحديثان؟ قال الرجل: دائماً نتناقش فيما لا يفيد، وسكتَ وسكتّ، ولا أدرى مَن الذى أوْصَل الحديث إلى الأستاذ عبد الحليم محمود، فبعث إلىَّ يرجو أن أقابله، وصافحنى فى ابتسام، ثم قالَ: لا تُعارِضْ من تلمس فيه الغرض الواضح، لأنّ النقاش لا يُفيد غير طالب الحقيقة، أما الذى يتمسّك بما يقول برغم وضوح خطئه، فمعارضتُه لاتفيد، دعْه يتكلم، فالكلامُ لايحق باطلا، ولا يبطل حقا، ثم تلاقول الله عز وجل:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[1].

في بني عامر:

توجهتُ فى إحدى المناسبات إلى زيارة أخى الأستاذ محمود أحمد هاشم رحمه الله، فوجدتُ الجمع بساحة المسجد حافلاً يغصّ بالمجتمعين، كعادة أهل الشرقية فى مولد الشيخ أحمد هاشم، وعلمتُ أن الدكتور عبد الحليم محمود يجلس فى صدر الحفل مع نفرٍ من أساتذة الأزهر، وحين رآنى، نهضَ فسلمتُ عليه مبتهجًا، فقال لى: نحن هنا منذُ ساعة، والناس يصخبوُن، فتحدثْ إليهم يارجب، فقد

---

(١) سورة هود الآية ١١٨.

ينتفعُون، فوجئت باقتراح الأستاذ، فقلت: إنى لم أهيّئ كلامًا يليق بالمجتمعين، ولابد من الإعداد الجيّد لأفيد، ولستُ من رجال المنبر، فهل يتفضل سواى؟ فقال الأستاذ: لا أرى داعيًا لهذا التحفظ، إنّك تحفظ كتاب الله، ويكفى أن تقرأ آيةً أو آيتينْ وستجدُ الفتحَ المبين، لأن للْقرآن نورًا يشرح الله به صدر المؤمن، ثم التفتَ إلى الزملاء فقالَ: كنتُ فى شبابى أهابُ الحديث فى الاجتماع العام، لأنّى أريد أن أحْظى بقبول المستمعين، ثم صرفنى الله عز وجل عن هذه الرغبة، فأصبحتُ أريد النفع ولو لمستمعٍ واحد، فكنت أُسرع الكلام، وفق ما يوجهنى الله إليه بدون إعداد، وأنا أعترف أنى لم أكن آتى بالجديد، ولكنْ أذكّر الناس، فالذكرى تنفع، وهنا نهض الشيخ حسينى هاشم فألقى كلمةً موجزة حازت القبول، فدعانى الشيخ قائلا: هل قالَ الحسينى غير ما تعلم، ولكنْ هنا فى محيط العامة مَن لَيْس يعلم، فنفحُه إذن ضرورى، تشجعْ يا أخى ولا تنكص.

ثم انتقلنا إلى حجرة الطعام، وكانت مُهيَّأةً بأنْفس ما يُؤكل، فقال الشيخ: لا أريدُ غير العيش والجُبن، فقال قائل: العيشُ موجود، أمّا الجبن فهو مصنوعٌ من نتاج اللحم، واللحم حاضر ينوبُ عنه، فابتسم الرجل وقال: ليس عندى استعدادٌ لغير ما طلبت، فأنا أفهمُ نفسى، ثم قال: عاش المفكر الإسلامى الكبير عبد الواحد يحيى سنوات لايذوق فيها غير كوب اللّبن، يُقدّم لهُ فى الصباح والمساء، مرتيْن فقط فى اليوم، فقالَ أحد الحاضرين: ومن عبد الواحد يحيى هذا؟ إنى لا أعرف عنه شيئاً، فضحك الشيخ وقال تذكّرنى بموقف طريف، لأنّى سمعتُ عن الرجل كثيراً وأنا فى فرنسا، بدُون أن أعرف من أمره شيئًا، وعجبتُ كلّ العجب أن يعيشَ فى مصر، فتتحدث عنه باريس، ولا تتحدّث القاهرة، وحينَ رجعت من البعثة كان أكبر همّى أنْ أحظى برؤيته، وبذلت جهدًا جاهدًا حتى عرفت مكانه، وسعيتُ إليه، فحجبت عنه عدةَ مرات لا عتذاره عن مقابلة أحد، حتى ضاق بى الأمر، ثم علمت أنّ وزير الأرجنتين المفوّض فى مصر، يزورُه فى منزله، وإذا أردتُ الاتصال به فعن طريقه، فبادرتُ إليه راجيا، حتّى سمح بمرافقتى إياه،

واتّجهنا إلى (فيلا فاطمة) فى إحدى ضواحى الدقى، فدققنا الجرس، وانتظرْنا لنَرى شيخاً مهيبًا، طويل القامة، يغمُر النور وجهه كأنّه بدرٌ ساطع، فاستقبلنا باسمًا، والتزم الصمت، ولكنّ السفير أخذَ يتحدّث فى ملاطفة، والشيخُ يبتسم دونَ أن ينطق، ثم رجَعْنا إلى المفوضية، فقال السفيرُ لزوْجته: لقد قابلنا اليوم شخصية مهمة جدا، فمن تظنين؟ قالت: وزير الخارجيّة، قال السفير: أعظم. قالتْ ماذا أقول؟ أقول ربنا؟ فقال السفير: هو شخصية إلـهيّة، هو عبد الواحد يحيى، فَصَرَخَتْ: لماذا لم أذهبْ معكما؟ أنت تعلم شوقى إليه، هل هذا يليق؟».

وعجبنا من القصّة، إذ كانت شخصيّة عبد الواحد غريبةً على أكثر المستمعين..

ابن عطاء الله السكندرى:

اتصلَ بى الدكتور يوسف الشال سكرتير تحرير مجلّة الأزهر، وقال لِى: إن الدكتور عبد الحليم محمود كلّفنى بأن أدعوك لزيارته سريعًا بمكتبه بالأزهر، وأنا أسعد كثيرًا بلقاء الرجل، ولكن لا أحب التردد على المكاتبِ العامة للمسئولين، فلمّا علمتُ دعوته إلى سارعتُ للقائه، فقالَ لى: دعوتُك لتكتب مقالا بمجلّة الأزهر عن ابن عطاء الله السكندرى تتحدّثُ فيه عن تاريخه ومجده العلمى وأثره الأدبى، وتدعو القادرين للتّبرع كى ننهض ببناء مسجدٍ يليق بمقامه، لأنى لم أرتحْ لموضعه، حين زرته بالأمس، وقد افتتحتُ بابَ التبرّعِ بما أذن به الله، فما رأيك؟ قلت: إنّى على صلة بآثار ابن عطاء، وأحفظُ من حكمه أقوالا تكاد تكون شعرًا، فقال: ما شاء الله: أسْعفْنى ببعض ما تحفظ! قلتُ قول ابن عطاء عن ربّه:

كيف يتُصوّر أن يحجبه شىء وهو الذى أظْهَرَ كل شىء؟ كيف يتصوّر أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء؟ كيف يتُصور أن يحجبه شىء، وهو أظهر من كل شىء؟ كيف يُتصوّر أن يحجبه شىء، وهو الواحد، ليس معه شىء؟ كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كلّ شىء، كيف يُتصور أن يحجبه شىء، ولولاه ما كان وجود شىء؟

فابتسم الرجل، وقال تقول هذا يكاد أن يكون شعرا! إن الشعر لنْ يبلغ شيئًا من تحليقه السَّاحر! اذهب لتكتب المقال الليلّة، وأقرؤه فى الغد.

وأذكر أن المقال أثار ثائرة أخى الأديب الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين الكاتب السعودى المعروف، فعلّق عليه بما يدلّ على منحاه الدينى فى إهمال الاحتفال بأضرحة العلماء، ولم أتأثرْ لنقده وكان قاسى اللهجة، لأن الأنظار لابدّ أن تختلف.

اعتكاف الشيخ:

أعَدَّت الجمهورية قرارًا بشأن الأزهر يُحيل الأمور به إلى وزير شئون الأزهر، ويسلب شيخ الأزهر حقّه فى إدارة الأزهر وتوجيهه، فعارضَ الشيخ هذا القرار، وأبْدَى من الحجج ما كان موضع الإقناع، ثم قدَّم استقالته وآثر الاعتكاف فى منزله، فانهالت الوفودُ عليه مؤيّدة مُحبّذَة، وزحفَ أبناؤه نحوَه من كل صوب، ورأت الحكومة أن تتَراجع بعد أن لمستْ صدى اعتزال الشيخ لدى الرأى العام، ولكنَ بعض من يضيقون بالشيخ من اليساريين رأوْها فرصةً لمهاجمته، فأخذوا يفترون الأكاذيب، ويقولون: إنّ آلاف الدولارات تجىء إليه من بلاد البترول بدون أن تَعرف عنها الدولة شيئًا، وقد دار حديث الشيخ معنا حول هذه الأراجيف، فقالَ (إن كشوفَ التبرعات موجودة فى أمانة لجنة أزهرية خاصّة بها، وبهذه التبرعات أُنشئت عشراتُ المعاهد الأزهرية فى شتىّ أنحاء الجمهورية، كما أُنشئت مئات المكاتب لتحفيظ القرآن الكريم، ولَدى الحكومة سجلٌّ بما أنشئ، وما تبرّع به المصريون مُضافًا إلى ما جاَء من الخارج) والذين فى قلوبهم مرض يَعْرفون ذلك ثم ينكرون الحقّ الصريح، ومَع وضوح البراهين فقد وجدَ الآفِكُون الذين لايجرءون أن يقولوا كلمة واحدة عن التبذير المسرف فى أكثر المرافق، ثم يتعمدون مهاجمة الشيخ، لأنه حاربَ الشيوعية بلسان باتر، فألّف الكتب، وأقام الندوات، وسَاحَ فى البلاد هاديًا ومرشدًا، حتى أفاق الناس من سكرة الخداع الشيوعى قبل أن تتزلزل أقدامُه فى روسيا ودول الحلف بسنوات طوال، ثم مات الشيخ ولم يترك مليمًا واحدًا، ولم تجدْ أرملتُه غير المعاش الحكومى، ثم مالبثتْ أن لحقت به؟ فأين ما أفك به الخَرَّاصُون؟

حدثنى مدير مكتب الشيخ، أنه كان ينفق العُشْر مباشرةً حينما يقبضُ مكافأةً على مقال أو كتاب، وقد قيل له: إن الزكاة لاتجب إلاّ بعد أن يحول الحول، فقال: أنا أفهم فهمًا خاصا فى قول الله عز وجل: ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ إذ لا أقتصرُ بالحقّ على المزروع فقط، بل علَى كلّ ما يجىء من المال، وهذا فهمى ولا أقيد به أحدًا!

درس بليغ:

كان الشيخ عبد الحليم على معرفة جيدة بمن يمتّون للوعظ بالمساجد، لأنّه يتحسس أخبارهم فى يقظة، فإذا علم من أحدهم مثابرةً وكان دءوبًا شجعه وزاره فى مجلس وعظه، وإذ لَمس تقصيرًا لدى بعض من يكتفون بالرسميات دُون إخلاص نبّههم بالحسنى إلى مايجب نحو المسلمين من إرشاد وتوجيه، ومِنْ طرائفه النادرة أنّ أحَد المنتسبين إلى طريقةٍ صوفية يقوم على مشيختها، وله وَجاهة فى محيطه وأسرته، جاء إليه ناقمًا يشكو الشيخ صالحًا الجعفرى خطيب الجامع الأزهر، والداعية الإسلامى الشهير، لأنّه يجمعُ نفرًا من أتباع الشاكى فى حلقته كى يقرأ عليهم الصلوات الادريسيّة بدلَ الأوراد الشاذليّة، واستمع الشيخ إلى الشكوى، فكتم تأففه فى داخله، وقالَ للشاكى: مَتَى سُيلقى الشيخ صالح درسه المقبل؟ فقالَ: علمتُ أنه سيلقى درسًا بالأزهر بعد صلاة العشاء هذه الليلة، فقالَ الشيخ: سأكون لديْه، فتعالَ معى، لنتحدث معه، وحان الموعد، فذهب الإمام الأكبر متواضعًا ليجلس فى أقْصى الحلقة مستمعًا، بدون أن يشعر الشيخ صالح بمقدمه، وكانَ الشيخ مُوَفَّقًا كل التوفيق فيا أبدعَ من شرح، حيثُ فتح الله عليه بما أنعْش السّامعين، وجَذبَهم إلى مَوْرده الصافى مُسترسلاً فى روائع الآيات ورقائق الأخبار، ثم انتهى الدرس بعد ساعةٍ ونصف، فتوافد السامعون فى طابور على الشيخ يلْثمون يديه كعادتهم معه، وانتظم الإمام الأكبر فى الصّف، ووراءه مَنْ شكاَ الرجلَ الكبير ظانا أن الإمام سيُفاجئ الدّاعية بما لا يتوقّع، فلما دنَا من الشيخ صالح، قبّل كفّه ومضى، فصَاح بعضُ الحاضرين ينبّه الشيخ صالح بأن الذى قبّل كفه هو الإمام الأكبر، فصاح الشيخ صالح متأثّرًا ينطق بلا إله إلاَّ الله كمن

يستجير ثم جرى خلف الشيخ ليعانقه قائلاً: مَنْ أنا ياسيدى بجوارك؟! كيف غفلتُ عنك وأنت تقبّل يدى؟ ثم انحنى على كفّ الشيخ عبد الحليم لاثمًا عدة مرات، وخرج الإمام ليقول لصاحبه: لماذا لا تجمعون أتباعكم كل ليلة، وتُحضِرون مَنْ يفسّر لهم كتاب الله إذا كنتم عاجزين؟! لقد جئتُ بك هذه اللّيلة لتتعلّم من الشيخ، هلْ مشيختُ الطريق وجاهةٌ أو أنها رسالةذات هدف؟ أنتم بتقاعسكم عن هداية الناس تصدّون عن سبيل الله! ثم تنقدون من يقوم بواجبه عن قناعة وإيمان، أنتم فى وادٍ وهو فى وادٍ.

وكم للدكتور عبد الحليم من مواقف ذات تأثير، فما كتبتُ هنا غير القليل!

***

obeikandl.com

الأستاذ محمود الخفيف

سعدت مدينة الفيوم ذات أسبوع بزيارة الأديبين الشاعرين الأستاذين محمود غنيم، ومحمود الخفيف، إذْ كانا مفتشين عامين بوزارة التربية والتعليم، أولهما للغة العربية، وثانيهما للمواد الاجتماعية، وقد اصطحبا معًا فى جولتهما التفتيشية وهما بعدُ صديقان حميمان تُروى لهما النوادر الفكاهية شعرًا ضاحكًا، وأدبًا مرحًا، ومن المتعارف لدى زائرى الفيوم من رجال التربية والتعليم أن يقضوا أمسياتهم الليلية بنادى المعلمين، أو بكازينو السواقى، وهو مقهى فخم، تضيئه الأنوار، ويحيطه الشجر الناضر، وأمامهُ يتدفق الماء جاريًا من النهر حيث تقوم السواقى الشهيرة بحركتها الدائرة، فتنسال خيوطه الفضيّة المتناثرة أمام العين فى مشهد رائع يتسلط عليه ضوء الشمس نهارًا، وأشعة الكهرباء مساءً، فلا أَرْوَعَ ولا أبهى من منظره إذ ذاك، وهذا ما جعل المقهى قبلة الأنظار، ومهوى المتسامرين والطّاعمين معًا، وقد علمتُ ذاتَ لَيْلة أن الشاعرين الكبيرين يأخذان مكانهما البهيج بيْن كوكبة من المدرسين، فهرعت لأكون بين المرحبين، لأنّ علاقتى بالأستاذ محمود غنيم وثيقة، فهو الأستاذ والصديق، وكان ما توقعتُ، إذْ رأيتُ الشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم يتوسط الزملاء فى سمر فكاهى عذب، على حين جلس الأستاذ محمود الخفيف منفردًا وحده، فى مكان يطلّ على السواقى، فقلت فى نفسى: لَمِ لَمْ يحضر من أساتذة المواد الاجتماعية من يناقله الحديث؟ وإذا لم يكن ذلك فلماذا لم يندمج فى ندوةِ زميله وصديقه الشاعر محمود غنيم؟

وأخذتُ أتطلّع إلى مجلسه فى حيرة، وفى الأستاذ غنيم ذكاء وبديهة، إذْ عرف موقع نظراتى، فصاحَ من فوره، يا أستاذ محمود، الأستاذ رجب يريد أن يسمر معك، وقال لى ضاحكًا: هيّا.

أول لقاء:

ذهبت إلى الأستاذ الخفيف سعيدًا مغتبطًا، لأنى أعرف مكانه من الأدب الرفيع، وقبل أن أصل إليه، رأيته واقفًا يمدّ يده للسّلام، فتصافحنا فى شوق، وقال لى: لا تنكرْ علىَّ انفرادى، لأنّ منظر السواقى قد جذبنى إلى ذكريات ماضية أرتاح لاسترجاعها، وقد قلت للأستاذ غنيم إنى لا أرحب بضجيج المدرسين، وكفى أن أكون معهم فى الصباح! فعجلتُ أقول: أخشى أن أكون قد فرضتُ نفسى فرضًا على مجلسك الهادىء، فأجاب سريعًا: كلاّ كلاّ، الأستاذ غنيم ذكر لى أنك بالفيوم، فاشتقتُ للقائك، لأنّ الرسالة جمعتْنا، ولابدّ أن نتعارف، فاستدركتُ أقول: مع فارق واضح، هو أنك بمجلة الرسالة أستاذ وأنابها تلميذ! فربت بكفه على كتفى، وقال: لافرق.

وكنت أعرف من أصدقاء الخفيف أنّه يستمع أكثر مما يتكلّم، وهو فى ذلك نقيض الأستاذ محمود غنيم، إذ يتكلّم بإفاضة فى كل مجلس على معرفة وفكاهة وذوق، فأردتُ أن أفتح مجال الحديث الأدبى فيما يتعلّق بمؤلفات الأستاذ الخفيف، لأنّ له كتبًا تجمع بين التاريخ والأدب كانت محور الانتباه بين صفوة المفكرين، إذ كتب عن أحمد عرابى، وإبراهام لنكولن، وتولستوى، وجون ملتون، مجلّدات رائعة هى فى الصف الأول بين كتب التراجم المعاصرة، هذا إلى قصائده الشعرية التجديدية التى حفلت بها مجلدات الرسالة، فقدمت نمطًا جديدًا من الشعر العربى الأنيق، أقول: لقد أردتُ أن أفتح مجال الحديث الأدبى عن مؤلفات الخفيف، فقلت له: لقد قرأتُ ماكتبه الدكتور زكى نجيب محمود، والأستاذ العقاد، والأستاذ الزيات، والأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف عن آثارك الرائعة، بعد أن كونت لى فكرة خاصة عنها، إذا طالعتها متفرقه على صفحات الرسالة، ومجموعة فى مجلدات خاصة، فنظر دهشًا، وقال: ما أظنك تهتم

فقال، وهل قرأت ردّى على الدكتور زكى نجيب محمود؟ قلت: لا تعتدنى مجاملاً حين أذكر أن الدكتور زكى نجيب محمود قد اشتط كثيراً، إن الناقد الكبير أثْنَى على أسلوبك، وحمد جهادك المتواصل فى مضمار الأدب، عارفًا معدنك الفكرى الأصيل، وقد كتب فى ذلك فقرات صادقة، صادفت هوى المنصفين، ولكنه رآك تدافع عن أحمد عرابى وإبراهام لنكولن فى حماسة، فقال: إنك تجاوزت دور المؤرخ إلى أسلوب الخطيب، بل قال: إنك تحدثت عمَّا ينبغى أن يكون لا على ما قَدْ كان! وهذا غير الواقع، لأن الذى لايتحدث عمَّا كان لايكون مؤرخًا لأحداث، ومسجلا لمواقف، بل يكون قصَّاصًا يمزج الواقع بالخيال.

قال الأستاذ الخفيف: هذا بعض ما قلتُه فى ردّى عليه، ولم أشأ أن أطيل ردّى، لأنى أعرف من طبيعة الدكتور زكى ـ وقد كنا زملاء بمدرسة المعلمين العليا ـ أنه يضيق بالأسلوب الأدبى فى مجال التحليل التاريخى، مع أن كبار المؤرخين فى الشرق والغرب يقدمون الشخصيات التاريخية فى أفواف لامعة من البيان، دون أن يخالفوا الحقائق الأدبيّة فى شىء، وما احتفل القراء بآثارهم إلاّ لأنها تجمع بين الصدق الواقعى، وجمال الأسلوب البيانى، وأذكر أنى قلت فى ردّى المتواضع: إن على الدكتور زكى أن يتفضل بذكر حادثة واحدة بين أكثر من ألف وخمسمائة صفحة لم تحدث فى دنيا الواقع، وكتبتُها أنا متحدثًا عمَّا ينبغى أن يكون، ولم يجد الدكتور هذه الحادثة المتخيلة فآثر السكوت!

قلتُ: أتذكّر أنى قرأتُ هذا فى ردّك، ولكن أزيد عليه شيئًا أذكرهُ الآن، هو أنّ الدكتور زكى قد كتب نقده بعد رجوعه من لندن داعيًا إلى المنطق الوضعى، وقد كتب عدة مقالات تدور حول تحديد معنى الألفاظ بدون ترادف، وفى ظلّ هذا المفهوم المنطقى لديه قرأ كتابك، وحكم بما حكم، ناسيًا أن التاريخ من الدراسات الإنسانية وليس من العلوم التجريبيّة، وأن المؤرخين الذى كتبوا التاريخ بلسان الأدب، قد قربوه إلى القارئ وكسبوا أرضًا جديدة لم تُتح من قبل، وموضعُ

الحكم أن نسألَ: هل تعدّى المؤرخُ الأديب ماكان أو وقف عنده بدون شرود؟ وإذا لم يتعدّ فلا نقاش!

اغتبط الأستاذ الخفيف بما ذكرت، وقال: إنه كان يحسّ أن جمهوراً كبيراً من القراء سيتأثر بما قال الدكتور زكى، ولكنّه الآن يعلم أن المسألة قد أصبحت فى غاية الوضوح بحيث لم يتأثر به غير المغرضين.

ثم سألنى: هل تذكر رأى الأستاذ عباس العقاد؟ فقلت: لقد قرأت ماكتب العقاد فى حينه، وأظنك رددت عليه، ولكنى الآن لا أذكر ماقال، وفى مُكنتى أن أرجع إليه بعدُ.

قال الخفيف: الحق أن الأستاذ العقاد أنصَفنى إنصافًا كَبَتَ الذين فرحوا بما قال الدكتور زكى نجيب محمود، وللأسف نرى فى مصر جماعةً لا يقرءون أى كتاب، ولكنهم يتتَبَّعُونَ ما يُقال عنه، فإن كان حمداً ستروه ، وكأنهم لم يقرءوا، وإن كان توضيحًا لما قَدْ يُغمضه الكاتب أو تفصيلاً لما أجمله، عدُّوا ذلك التوضيح تخطئة ومضوا يقولون: لقد عصف العقاد أو غير العقاد بكتاب فلان، لقد اعترف العقادُ فى مطلع نقده النزيه أن كتابى جمع من الحقائق الثابتة بالأسانيد والوثائق مالاغنى عنه لفهم الشخصية التاريخية التى أتحدث عنها، وأننى فى كتاب أحمد عرابى قد محصت التاريخ المصرى، وأوضحت أساليب السياسة الاستعمارية فى القرن الماضى إيضاحا يكشف مخابئ هذه السياسة الماكرة فى هذا القرن، كما أبان أن كتابى عن أبراهام لنكولن هو الكتاب الوحيد فى اللّغة العربيّة الذى تكفل برسم هذه الشخصية العظيمة، وتوضيح أدوارها على مسرح الحياة، وقد أخذ على أنّى لم أكتب الكثير عن أسرة الزعيم الأمريكى، ولم أوضح أثر المصادفات فى نجاحه السياسىّ، وكنت بيْن عامليْن مُتناقضين إزاء ماكتب العقاد، إمّا أن أسكت فلا أعقب، ومعنى ذلك أنى موافق على ماوجّه إلىّ من نقد، وإمّا أن أردّ فأقع فى خطأ ما يأخذه العقاد فيفتح له مجالا لتعقيب قد لا أقدر على نقضه، وبعد استشارة بعض أصدقائى تقدّمت برد مهذّب على الأستاذ، وتفضّل بتعقيب ضيق

وَجهَ الخلاف، ولو أذن الله فطُبع الكتابان طبعة ثانية فإنى مثبت ما قال الناقد الكبير فى صدر الطبعة الجديدة، ومعقب بما قلت فى الرد عليه.

كنت أثناء حديث الأستاذ أستمع يقظًا بدُون اعتراضٍ مَّا، فقال: أرانى أرهقْتُكَ بحديث جدلى لا فائدة فيه، قلتُ: معاذ الله، إنى حاولْتُ استيعاب كل ما نطقتَ به متفضّلا، فقال: لنترك الكتابة إلى الشعر، فأسالُك عن آخر ما نظمت؟ قلت: ياسيدى أنا إذا قُلْتُ شِعْرًا إنّما أعرضه فخورًا أمام زميل لى بالمدرسة، أو صديق مستواه الفكرى لايرتفعَ عن مستواى، أما أن أقول الشعر لأسمعه للأستاذ محمود الخفيف، فإنى أجازف بذلك مجازفة خطيرة!

فضحك الأستاذ وقال: وإذا كنتُ قد قرأتُ كلّ ما نشرتَ بمجلتى الرسالة والثقافة، واستمتعتُ كثيرًا فأين المجازفة إذن؟

نقلة فى مفاجأة:

وكأن القدر شاء أن نتركَ حديث الأدب شعرًا ونثرًا إلى حديث مفاجئ اقتحم جلستنا، كما يهجم زائر بغيض على غير انتظار، فقد مرّ أمامنا فى الشارع المواجه للمقهى موكب يحشدُ فيه عشرات من المارّة، خلف شيخ يلبس عمامة حمراء، ويقلّب سبحة طويلة تكادُ حباتها تصلُ إلى الأرض، وخلفه من يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير، فقال الأستاذ متعجبًا: وفى الفيوم أيضًا هذه المظاهر السوقيّة؟ وقام الجالسون من حولنا لينظروا فى عجب، على حين صاح أحدهم: هو الشيخ فلان من بنى سويف، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه ورث المشيخة عن أبيه وجدّه، وإذَا زار الفيوم انعقد له هذا الموكب، وأخذ ينزل فى دور أتباعه قرابة شهر ليكون موضع التقدير والاحتفاء، وهذا الموكب مهذب معقول، فإنهم فى القرى الصغيرة يضربون الأعيرة النّاريّة ويطلق النساء الزغاريد احتفالاً بمقدمه، ويتقاتل الفلاّحون على استضافته شَهْرَيْن وثلاثة وأربعة، وهو ساكت لاينطق، لأنه يَسْبَح فى ملكوت الله عند الملأ الأعلى فى اعتقاد هؤلاء.. وهم يرجون نجاح التلاميذ وشفاء المرضى وجودة المحاصيل الزراعية ببركة زيارته.

قال الأستاذ الخفيف، بعد أن سمع هذا القول: سأروى لك قصّة من هذا الوادى، إن مصر هى مصر، وفى قريتنا بالمنوفية أتباع مخلصون لشيخ مثل هذا الشيخ الأُمِّى، ولكنُه دجال مشعوذ لايكتفى بالنظرات التى تسبح به إلى الملأ الأعلى، ولكنه يدبّر الحيل الغريبة ليوهم الناس بمعجزاته الخارقة، وأضرب لك مثلا لبعض ألا عيبه، فقد دخل منزل شيخ القرية ذات مساء، وجلس أتباعه من حوله كأن على رءوسهم الطير، ثم ارتفع صوته بالتكبير ونهض واقفًا، وهو يقول: لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله، أَطْفِئ النارَ يارب، أَطْفئ النار ياربّ، أَطْفِئِ النار ياربّ، الفلاحون مساكين، يا حُسْين، يا سيد، وجعل يقفز ذات اليمين وذات الشمال، وبعد لحظات سمع الحاضرون صراخًا عاليًا جاء من الخارج، وقال القائل: إنّ النار قد اندلعت فى جُرن فلان، وخرج الريفيون كعادتهم وأطفئوا الحريق، ورجعوا وهم يتعجبون كيف عرف الشيخ اندلاع النار قبل أن ينبعث لها شرار! فقال لهم: لقد قدرتُ الموقف واستعنتُ بالحسين وبالسيد، وهما اللذان أطفآ الحريق، الحمد للّه، الحمد للّه، فزاد الرجل مهابةً فى نفوسهم، ولكنَّ شقاقاً حصل بيْنه وبين أحد أتباعه وخدمه بعد عام، فقال للناس: لقد أرسلنى حين دخل المنزل يوم الحريق إلى الجرن وأمرنى بإيقاد النار بعد ربع ساعة بالتحديد، ففعلتُ ليقومَ بلعبته، ويدعّى أنه يعلم الغيب، ويُنادى الحسين والسيد فيأتمران بأمره، وهمَّ أهل القرية أن يبطشوا بهذا الذى اعترف بالواقع جَزاء جرمه لولا أن فريقًا من الدهماء كذّبه وقال: إنه يفترى على الولىّ الكبير!

آخر لقاء:

قرأت فى الصحف بعد أسابيع أن الأستاذ محمود الخفيف صار ناظرًا للمدرسة السعيدية الثانوية، وهى من كبريات المدارس بمصر، فرأيت من اللائق أن أذهب إلى تهنئته، وماكاد يرانى حتى ترك مكتبه، ونهض يعانقنى هاشا باشا، فقال: لماذا تكّلف نفسك يا أخى! أنا لا أعد نظارة المدرسة الثانوية وان كانت السعيدية شيئًا ذا

بال، وإذا جاز لفريق من الموظفين أن يطمحوا إلى أمثالها، فهم وموازينهم التى لا أعتد بها!

وبعد أن دار الحديث فى رتابته المعهودة، قال لى: سأفاجئك بخطابٍ تعجب له، يكشف عن معدن ناظر أصيل من نظار المدارس الحقيقيّين، وهو إنجليزىّ للأسف، ليته كان مصريا فأفخر به وأزهو، ولكنه إنسان رفيع المستوى، لا تجد مثله بيننا، وأراهنك!

قلت: لقد حيّرتنى فأتمم، قال: كان (المستر إليوت)ناظرًا لمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة، وأُحيل إلى المعاش منذ خمسة وعشرين عامًا، وسافر إلى لندن، ولكن أحد الفراشين بالمدرسة كان يراسله كلّ عام، فيرد عليه الناظر ردا مسهبًا، ليسأل الفراشَ عن أبنائه وأحوال تعليمهم، كما يخبره عن أبنائه الذين رآهم فراش المدرسة صغارًا بمصر، كيف تعلموا؟ وأين صاروا، ثمّ كانت الدهشة التى تلقاها الأستاذ الخفيف حين حضر إليه الفراش بكتاب باللّغة الإنجليزية ليترجمه له كما اعتاد الخفيف أن يترجم بطاقات المعايدة، إذ وجد (المستر إليوت) يكتب إلى الفراش قائلا إن نجله نائب مارشال الطيران بجبل طارق أخبره أنه سيزور القاهرة فى عمل سياسىّ برفقة رئيس وزراء إنجلترا، فحتم عليه أن يزور السيد (أحمد حسين) فراش المدرسة التوفيقية، وأن يعلم أحواله الصحيَّة، ويستفسر عن شئون أولاده بمصر، وقد جاء النجل الكريم للمدرسة فوجد السيد أحمد حسين غائبًا، واضطر إلى عدم تكرار الزيارة لأن الرحلة كانت لمدة يوم واحد فقط! وقد أسف المستر إليوت لعدم لقاء ولده بصديقه أحمد حسين، ويرجو أن يكون حظه فى المرة القادمة أحسن وأتم! هذا ما جاء فى خطاب الناظر الإنجليزى المحال إلى المعاش منذ ربع قرن، وهو خطاب حرص الخفيف على نشره فى صحيفة أدبية ليعطى النموذج النادر فى الوفاء.

سمعتُ ما قال الخفيف، فقلت: أنتَ لم ترحّبْ بخطاب (المستر إليوت) إلا

لمشابهةٍ ما بين خُلُقِكَ وخُلقه، فقال: ليتنى أبلغه، وحان انصرافى فودعته غير عارف أنه وداع لغير لقاء، إذ لبى نداء ربه بعد عدة شهور.

* * *

obeikandl.com

الأستاذ على عبد الرازق

للأستاذ الكبير على عبد الرازق ـ وزير الأوقاف الأسبق ـ فكره المستقل، ورأيه الحرّ، وقد أحدث كتابه عن الإسلام وأصول الحكم ضجة فكرية جوّفتها السياسة الحزبيّة، فانتقلت من حيّز إلي حيز، ثم رأى الأستاذ بعد تجربته فى هذا الكتاب أنْ يُؤثر التؤدة، فلم يكتب من المقالات والبحوث ما يوحى به استعداده، ولكنّه اكتفى بمقالات هادفة ينشرها فى السياسة الأسبوعية أيام ظهورها، ثم فى مجلات دار الهلال، هذا غيرُ محاضراته فى الندوات الرفيعة التى كان يتحدث فيها كبار رجال الفكر فى مصر، مع دروسٍ علمية فى أصول الفقه ألقاها على طلبة الدراسات العليا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق فى جامعة القاهرة، ثم طبعها تحت عنوان «الإجماع فى الشريعة الإسلامية».

وقد قابلت الأستاذ الكبير مرّتيْن متواليتيْن، فحظيتُ بفضله وعلمه وكرمه، وتنقّل الحديث من موضوع إلى موضوع، فى مدار العلم والأدب، وقد أعجبنيِ منه حسن استماعه، إذ كنتُ ـ على الفارق الكبير بينى وبينه ـ أجابهه بالمخالفة فيصغى فى تأمل، ثم يوجّهنى إلى ما غاب عنى من نقاط يعرفها حق المعرفة فى هدوء العالم المتمكن، والأستاذ السمح.

لقد تَقَدَّمْتُ بكتاب (الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير) إلى المسابقة الأدبية بمجمع اللّغة العربية فى مصر، وكانَ الأستاذ أحد الفاحصين، ففزتُ بتقديره، وحين اجتمعت اللجنة للمداولة، وجدَ من بعض الأعضاء من يعارض اتجاهه، وحجّتُه أنى لا أعرف اللّغة الأسبانية، وعلى مَن يكتب فى الأدب الأندلسى أن

يعرف الأسبانية، فقال الأستاذ على: أنَا لا أعرف الأسبانية، وأنت لا تعرفها، وكان لزامًا علينا بمقتضى وجهتك ألاّ نحكمَ على الكتاب حتى ندرسها! ووافقت اللجنة على تقدير الأستاذ..

علمتُ بعض ما كان، فأحببتُ أن أسعد بلقائه، وكأنّ الحظ كان معى، فقد جاءنى من قال: إن الأستاذ على عبد الرازق سأل عنك، ويحب أن يراك، وهى بشرى طيبة، لأنى أجد فى محادثة الكبار من الأساتذة آفاقًا جديدة تتسع أمام عقلى فجأة، ولهذه المحادثة تأثيرٌ يفوق تأثير القراءة فى الكتب، لأن صاحب الحديث يدافع عن رأيه، فترى فى بريق عينيه، وسحنة وجهه، ونبرة صوته ما يزيد حديثه تمكّنًا ورسوخًا، وهكذا هرعت إلى منزل الأستاذ بالدقى ذات أصيل.

اللقاء الأول:

قابلنى الرجل الكريم بهدوءٍ باسم، وفهمتُ من حديثه أنه قرأ كتابى من ألفه إلى يائه، وقد سأل عن نقاط شتى فأجبته عنها كما أستطيع، وكانَ الحديث يتّجه فى أكثره وجهة الأدب الخالص، فرأيتُ أن أعدل به إلى مباحث التشريع، فقلت: لقد وقعَ فى يدى كتاب (الإجماع) وقرأتُه باهتمام، ثم علمت أنّ الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت قد عقّب عَليه، فناقشَ أمورًا جوهرية، تتعلق بمباحثه، واختلافُ الأساتذة الكبار متوقّع منتظر، فهل قرأتَ ما كتب الأستاذ شلتوت؟

فقال الأستاذ: إنّ الشيخ محمود شلتوت من أعزّ أصدقائى، وترجع معرفتى به إلى أكثر من ثلاثين عامًا وله رأيُه الحرّ، وقد ناقش آرائى بدون أن يشير إلى اسمى، وكأنّه رأى أن تكون الموضوعية وحدها منهجًا يُلْتَزَم، وقد قابلتُه بعد ظهور كتابه عدة مرات فى جلسات مجمع اللّغة العربيّة، وتحدّثنا فى مسائل كثيرة، ولكنه لم يُشرْ إلى شيءٍ مما كتبَ فى حديثه معى، فآثرتُ ألاّ أفاتحه حتى يبدأ، وقد حمدْتُ له سلوكه العلمى لأنه احترم الرأى المعارض، وناقشَه فى حُدود الأدب واللياقة، ولو سلكَ المعارضون معى مسلكَ الأستاذ شلتوت لَما صادفتُ كثيرًا من العقبات.

أدركتُ من حديث الأستاذ، أنه يشير إلى المعركةِ الكبرى حولَ كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، إذْ رأى الأستاذ رَأْيًا لم يُوفّق فى تحقيقه، فقابله الجمهورُ بصخب مائج، واندَفع بعضُ الكُتَّاب إلى مهاجمةٍ تتعلّق بشخص الكاتب لا رأيه، فقلتُ فى أدب:

إنّ ماذهب إليه كتابكُ عن الإسلام وأصول الحكم حين قررتَ أنّ الإسلام صلةٌ روحية بين العبد وربه، وليسَ دستورَ معاملَة وتشريع! كانَ من الخُطورة بحثُ لا يجوز السكوت عنه!

قلتُ هذا وأنا أخشى أن أُغْضِبَ الأستاذ؟ وقد قابلنى مقابلة كريمة، ولكنه سأل فى هدوء: أتقولُ إنى قلت إن الإسلام صلة رُوحية فقط؟ لم أقلْ هذا، وقد أوضَحْتُ مقْصدى فى مقالٍ صريح نشرته بمجلة (رسالة الإسلام) التى كانت تُصدرها جماعة التقريب، ردا على الأستاذ الدكتور أحمد أمين حين قال إنّ هذه هى فكرتى!

كان ما قاله الأستاذ مفاجأة لى! فأنَا أعرفُ أنه قرَّرَ أن الإسلام صلة روحية فقط، وما قامت الفرقعة الصاخبة إلا من جرّاءِ هذا القول! وإنّ الذين عارضوه فى كتب مستقلة من أمثال الشيخ محمد بخيت المطيعى، ومحمد الخضر حسين، ومحمد الطاهر عاشور، قد وجهوا الهدفَ إلى إبطال هذا الزعم، فهل يكون الأستاذ قد رجع عَنْ موقفهِ بعد سنوات رَاجَعَ فيها نفسه، وقرأ ما كَتبَ مُعارضوه بإمعان، فصحح الرأى، وعاد إلى الصواب؟!

لقد صممتُ أن أُراجعَ مقال الأستاذ، وارتحتُ كثيرًا لهذا النبأ الجديد، وانتقلَ الحديث إلى شجون أخرى ألْمَمْنا فيها بمؤلفاتِ شقيقه الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق، وصداقاته المختلفة لكبار المفكرين والشعراء فى هذا العصر، ثم ذكّرتُ الأستاذ بمحاضرةٍ جيّدة ألقاهاَ عن التجديد فى البلاغة العربية، ونشرها بمجلة

الهلال، فَراعَنى أن أجدهَ قد نسيَها كل النسيان، وقد طلبَ منّى أن أُحضر مجلة الهلال التى أشرت إليها، ليرى ما قال.

تحقيق ودراسة:

اتجهتُ من فورى إلى البحث عن أعداد مجلة (رسالة الإسلام) وكانت مهمّةً صعبة، لأن الأعداد كثيرة، والرجُل لم يحدد تاريخ الصدور فيريحَ الباحث، إذْ لا يذكره، ثم كان مِنْ توفيق الله أن وجدتُ ما أريد فى عددَيْن متلاحقَيْن (هما العدد الثانى والعدد الثالث من السنة الثالثة) أبريل سنة ١٩٥١، ويوليو سنة ١٩٥١) لأن المجلّة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر، وفى العدد الثانى (ص ١٤٦) وجدتُ مقالاً للدكتور أحمد أمين تحت عنوان (الاجتهاد فى نظر الإسلام) يقول فى مطلعه:

«كنتُ أتجادل فى الشهر الماضى مع معالى الأستاذ على عبد الرازق باشا، وكنا نتعرضُ حال المسلمين وما وصلوا إليه من جمود، فقال: إنّ دواءَ ذلك أن نرجعَ إلى ما نشرتُه قديمًا من أنّ رسالة الإسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل، فقلت: إنّ رأيى أن رسالة الإسلام أوسع من ذلك فهى روحانيةٌ ومادّيّة معًا، بدليل ما ورد فى القرآن من نظامِ البيع والشراء، والإجارة والمعاملات المالية، ومسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونحو ذلك.

ثم صدرَ العدد الثالث يحملُ مقالاً تحت عنوان (الاجتهاد فى نظر الإسلام - ص ٢٤٦) بقلم الأستاذ على عبد الرازق باشا قال فيه بعد أن نقل عبارة الدكتور أحمد أمين:

«وقفتْ أمام ناظرى كلمةُ رسالة الإسلام روحانية فقط، ولم تشأ أن تمرّ من غير أن تثير ذكرى قصّة قديمة لهذه الكلمة معى، فقد زعم الطّاعنون الذين جعلوا فى قلوبهم الحميّة يومئذ، أنّنى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعةً روحانية محضةً، ورتّبوا على ذلك ما طوّعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أمّا أنا فقد رددتُ ذلك عليهم وقلتُ لهم يومئذٍ صادقًا ومخلصًا: إننى لم أقلْ ذلك لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره... وأسوق هذاَ الحديث ليذكرَ الأستاذ الكاتب الكبير أن

فكرة روحانية الإسلام لم تكنْ لى رأيًا يوم نشرتُ البحث المشار إليه، وأنّى رفضتُ يومئذٍ رفضاً باتا أن يكونَ ذلك رأيى، فما ينبغى أن أعودَ اليوم فأقول إننى أدعُو إلى أن نرجع إلى ما نشرتُه قديمًا من أنّ رسالة الإسلام روحانية فقط».

هذا ما قاله الأستاذ ردا على الدكتور أحمد أمين، وهو مما أثارَ دهشتى، لأنّى أعرف أنه قال هذا الكلام بمضمونه إنْ لم يكن بلفظه، ولو كان ينكر كلمة (روحانية) فإنّ مادتها صريحة فى كتابه، حيث يقول (ص ٦٩ ـ الطبعة الأولى): «ولايُة الرسول على قومه ولايةٌ روحية منشؤها إيمان القلب، وخضوعُه خضوعًا تاما يتبعه خضوع الجسم، وولاية الحاكم ولايةٌ مادية تعتمد على إخضاع الجسم من غير أن يكون له بالقلوب اتصال، تلك ولاية هداية إلى الله، وإرشادٍ إليه، وهذه ولايةُ تدبيرٍ لصالح الحياة وعمار الأرض، تلك للدين، وهذه للدنيا، تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامةٌ دينيّة، وهذه زعامةٌسياسيّة، ويا بُعدما بين السياسة والدين». ثم يقول الأستاذ على عبد الرازق (ص ٧٨ من الطبعة الأولى):

« والدنيا من أولها إلى آخرها، وجميع ما فيها من أغراضٍ وغايات أهونُ على اللّه من أن يقيم على تدبيرها غير ماركّب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات، وعلّمنا من أسماء ومسميات، هى أهونُ على الله من أن يَبعث لها رسولاً، وأهونُ عند رسل الله من أن يشتغلوا بها وينصبوا لتدبيرها».

هذا بعض ما جاء فى كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وهو تأكيدٌ لما ذكره الدكتور أحمد أمين عن الأستاذ، فما معنى هذا التعارض؟ يخيَّل إلىَّ أن الأستاذ على عبد الرازق قد آثر التراجع بطريقةٍ سياسّية لابطريقة علميّة، وهو تراجع لاشكّ فيه!

وقد عملتُ على نشر ما قاله الأستاذ فى أوسع نطاق أملكه، فنشرتُ عنه مقالين، أحدهما بمجلة الثقافة، والآخر فى جريدة الوفد، كما دوّنُته فى كتابيْن من مؤلفاتى، هما الجزء الثانى من قضايا إسلامية طبعة دار الوفاء، وكتاب (الأزهر بين

السياسة والفكر) وقد صدَرَ فى سلسلة (كتاب الهلال)، وقد جاءنى مندوب لصحيفة يومية فأخذ صورةً شمسية من مقال الأستاذ عبد الرازق ونشرها فى الصفحة الدينيّة، لتُعلَن الحقيقة مرات شتى، فينفى الالتباس، لأن خصومَ الفكرة الإسلامية، يتحدثون عن التشريع الإسلامى، ولا مرجعَ لهم غير كتاب الأستاذ ومِنْ عَمَى العيون عن الحق أن يصدر فى نقض الكتاب عشرات المقالات والبحوث، ثم لا يقرؤها المغرضون، ولو كانت الحقيقة دافعًا لبحوثهم لاستمعوا إلى الرأى الآخر، بل لقرءوا ماكتبه الأستاذ فى مجلة رسالة الإسلام، وهو مرجعهم الوحيد.

اللقاء الثاني:

قلتُ: إن الأستاذ قد طلبَ منى عدد الهلال الذى يحمل محاضرته (عن تجديد البلاغة) وقد اتّضح أنها نُشرت فى عددَيْن مُتتاليَيْن لا فى عدد واحد، فأحضرتُهما، وتوجهتُ إلى زيارته بعد أسبوعين من اللقاء الأول، فارتاح لرؤية ماكتب من قبل، وذكرَ أنه ألّف كتابًا فى البلاغة تحت عنوان (الأمالى) فى صدر حياته الأدبية، إذ كان مدرِّسًا بالأزهر قبل أن يُسافر إلى أوربا، وهو وسط بين التجديد والتقليد، ولكنّ بذرة التجديد تكمن فى أحشائه، وقد كانَتْ محاضرة البلاغة إحدى ثمار هذا التجديد!

قلتُ: إن الكاتب الكبير الأستاذ عبد العزيز البشرى قد عقّب بمحاضرة كبيرة عن التجديد البلاغى نَحَا فيها منحى الأستاذ، وقد نُشرت أوّلا بالهلال ثمّ بالجزء الثانى من المختار!

فقال: لا يُستغرب أن ينحو البشرى هذا النحو، فقد كُنّا من هواة الأدب الرفيع أثناءَ الطلب بالأزهر، وكان محمد عبده والمرصفى من أساتذتنا، وكنا نسمُر معًا فى منزلنا بعابدين، ومعنا أخى مصطفى، ومحمود أبو العيون، وطه حسين، والزيات! وكان البشرى مصدرَ سرورٍ دائم لنا، وهو فى البيان العربى أصيل أَصيل، تربّى على أدب المويلحى واحتذاه فى مطلع حياته، ثم تَصدّر إلى المقام الأول بين الكُتّاب.

أعجبنى ما قالَه الأستاذ عن البشرى ثم استدركتُ أقول: كانَ فى طوقِ أديبٍ كبير كالأستاذ البشرى أن يؤلف كتابًا عن التجديد البلاغى دونَ أن يكتفى بمحاضرةٍ، فلماذا لم يفعل؟

فقال: ماكنتُ أظن أن البشرى يعكفُ فى منزله لتأليف كتاب، إنّه نديمٌ سميرٌ مثل حافظ إبراهيم، ومحمد البابلى، وهؤلاء تستهلكهم مجالس السَّمر، ولا يطيقونَ عنها منصرفًا! لقد كان البشرى يمرّ فى الليلة الواحدة على عدة مجالس، فكيف يفرغ؟ أعتقدُ أنّ أصحاب الصحف قد أجبروا البشرى على نشر مقالاته، إذ كان مطلوبًا مَرْغُوبًا، وهم يُلحّون ويلحّون، وبذلك أجبَرَ نفسه على الكتابة، فى مقالٍ أو محاضرة، أما العكوف على بحث دقيق، فلن يتفرغ له، وله عملُه الحكومى نهارًا، ومجلُسه السّامر ليلاً، وكلّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، رحمه الله، فقد أسعدتَنى بذكره!

قلت: ألا تتكرم بجمع ما تناثر فى الصحف من مقالاتك كما فعل البشرى؟

فقال: لقد جمعتُ مقالات أخى مصطفى عبد الرازق بعد جهد شديد، وكنتُ أجد بعض مقالاتى أثناء البحث فلا أحفل بها، وحين ظهرتْ مقالات مصطفى قُوبلت بترحيب حار من ذوى الفكر، فحمدت الله على ذلك، وذلك حسبى! إن لى مرافعات قضائيّة تتضمن أصولاً كثيرة من الأحكام الشرعية، وأحبّ أن أفرغ بعض الوقت لها، ولكنْ ما أكَادُ أبدأ، حتى أنصرف، والدنيا لا تسير كما نريد، ولمحتُ بعض الإرهاق على مُحَيّا الرجل، فاستأذنت، وكان يُعانى مرضاً لا أدريه.. ولم تمض أيام حتى قرأت منعاه، فترحّمتُ عليه ذاكرًا استقباله العطوف.

* * *

الأستاذ محمد فريد أبو حديد

نشأتُ على إكبار أدب محمد فريد أبو حديد، لأن قصصه التاريخيّة الرائعة كانت مصدر انجذاب للشبيبة القارئة، فهى ذات أسلوب جياش متدفق، يجمع إلى جمال التعبير، حسن التصوير، ودقة التحليل، وروعة الخيال، وقد أخطأ بعض مؤرخى الأدب المعاصر، حين جعلوا قصص الأستاذ التاريخيّة تاليةً لمرحلة قصص الأستاذ الجارم، لأنّ الأستاذ فريد قد بدأ بنشر قصصه الأدبية بمجلة الثقافة منذ صدورها سنة ١٩٣٩، قبل أن يبدأ الأستاذ الجارم نشر قصصه التاريخية فى سلسلة اقرأ، مع الفارق بَيْنَ اتجاهى الجارم وأبى حديد، وكان للأستاذ مع مقدرته الفنيّة مقالاته النقدية والتربوية والاجتماعية ومؤلفاته الخالصة للتاريخ، فهو رائدٌ فى أكثر من مجال.

وأول لقاءٍ لى بالرجل الكبير، كانَ بإدارة مجلّة الثقافة (القديمة) حيث أشرفَ على تحريرها أمدًا غير قصير بعد مرض الأستاذ أحمد أمين بعيْنه، إذ أرسلتُ للمجلة مقالاً تحت عنوان «ترقيات المدرسين بالجامعة» تحدثتُ فيه عن انحدار المستوى العلمى لهيئة التدريس بالجامعة، بعد أن أصبح التعيين آليّاً، يُنظر فيه إلى الحصولِ على الدرجات الرسميّة، وكثيرًا ما يكون صاحبهُا حافظًا لافاهمًا، كما أنّ الصفوة من الأساتذة الكبار قد فرّوا إلى المناصب المرموقة خارج الجامعة، وتركوا للصغار أن يحتلّوا أماكنهم، ممّا عصف بمكانة الأستاذ الجامعى، ودار الحديث نحو هذه النقاط حتّى ملأ عدّة صفحات، وانتظرت أن يُنشَرَ المقالُ، فلم أجد صدًى له، فذهبت إلى إدارة المجلّة، وعلمتُ أن القائم على نشر المقالات فى هذه الفترة هو الأستاذ محمد فريد أبو حديد، فانتظرتُ ساعةَ مَقْدَمِه، وسألتُه عن مصير المقال،

فإذا به يقف مبتهجًا، ويشدّ على يدى فى حماسة، ويَقُول: إنه قرأ المقال مرتين، ولكنَّ أكثر القائمين على لجنة التأليف والنشر التى تَصدر عنها مجلة الثقافة أصدقاء لأساتذة الجامعة، ومنهمْ من لا يزال أستاذًا بها، ونشر المقال بالثقافة قد يَدلُّ على أنُه مُوعَزٌ به لحساسيات بين الزملاء، ثم قال الأستاذ: إنكَ تنشُر كثيرًا بمجلة الرسالة، والأستاذ أحمد حسن الزيات ليسَ أستاذًا بالجامعة، وقد نَشرَ عدة مقالات نقدية تتجه وجهة الإصلاح الجامعى، وإنّى أقترح عليك أن تنشرَه فى الرسالة، لأنّ ذلك سيسعدنى كثيرًا، إذْ لو وُكِلَ الأمرُ إلىَّ وحدى لنشرتُ المقال من يوم أن بعثته، ولأ أكتم القارئ أنّى فرحت بتزكية الأستاذ للمقال، وخرجتُ مسرورًا بمودَّته لأنشره بمجلة الرسالة، وقد نُشِرَ بتاريخ ٦/ ١٠/ ١٩٥٢م.

ومضتْ سنوات، وانتقلَ الأستاذ أبو حديد إلى رحمة الله، وأقامَ مجمع اللّغة العربية حفلةً لتأبينه كعادة المجمع فى تكريم الراحلين، وكان صاحب كلمة التأبين هو الأستاذ أحمد حسن الزيات، فسمعتُه يقول: إنّه كان يضيقُ بمن يحملون الشهادات الجامعية من أُوربا دون اقتدار علمى، ثم يجيئونَ ليعلنوا أنهم وحدهم أصحابُ القول الصائب، ويباهون بالإجازة الأوربيّة مع هوانِ نتاجهم العلمى وانحداره، هُنا تذكرت ماكان من أمرى مع الأستاذ، حين أغفلَ نشر المقال بالثقافة لاعتباراتٍ يفهمها حق الفهم..

اللقاء الثانى:

أرسلُت لمجلة الثقافة عدّة قصائد، فكنتُ أجدها تُنشر فى صحيفة الغلاف، إذ دأبت الثقافة على نشر الشعر فى الغلاف الثانى للمجلة، سواءٌ أكانت القصيدة لشاعرٍ مشهور أم لشاعر ناشئ، ولا أدرى لماذا غضبتُ من هذا الاتجاه، فأرسلت للمجلة قصيدةً تحت عنوان (الشعر فى غلاف الثقافة) قلت فيها:

نصوغُ الشعر مؤتلق القوافى فتنشرُه الثقافة فى الغلافِ
تناثَر فى هوامِشها بعيدًا وكانَ محلّه بيْـن الشّغافِ

وبأت على الشواطىء وهو عَفٌّ ... يرى فتك الشواطىء بالعفافِ
وما رغبَ اصطيافًا حطّ منه ... فتلزمه الثقـــافة باصطيـــافِ
وكانتْ من قريب تَجْتبيه ... وتمنحهُ هوى الخل المصافى
فينهضُ فـى حـدائقـها نضيرًا ... كأغصانٍ زهـت فـوق الضفافِ
أكان النثر أرفع منه قدرا؟ ... لعمرك تلـك ثالثة الأثافى!
فإنّ الشعـر بين النثر يبدو ... كخُضرة واحـةٍ بـين الفيافى

والقصيدةُ طويلةٌ، وقد نشرها الأستاذ فريد فى غير الغلاف، وكتب تعليقًا فى آخرها يقول فيه: ليسَ لنا من اعتذار نُقدمه لحضرة الأديب سوى أنّ الشعر مثلُ الزهر الأنيق لايبالى أن يكون، سواءٌ أكان فى حَوْض بستان، أم على حافة غدير، فهلْ لحضرةِ الأديب أنْ يصوغ هذا الاعتذار فى قطعة من شعره الجميل؟

وحين قرأتُ تعليق الأستاذ رأيتُ أن أعتذر إليه أنَا بعد أن اعتذر إلىّ، فذهبتُ إلى لقائه، فاستقبلنى باسمًا، وقال: يا أخى: أكثُر شعراء أوربا الكبار تُنشر قصائدهم فى غلاف المجلاّت الأدبيّة، لأنّ القارىء يفتحُ المجلّة، فيجدُ الشعر أمامه، وإذا عُدّتِ الواجهة هى الصفحة الأولى، فإن خَلْفها واجهةٌ أخرى تُواجه القارئ مباشرةً، وهذا من الاهتمام، لامن الإهمال، فكيفَ ظننت هذا؟ ثم قال: إنك تُذكّرنى بحساسيات الرافعى، والعقاد، وطه حسين، فأنا أعلم أنّ كُلامنهم يحرصُ على أن يَسبقَ صاحبَه فى ترتيب الفهرس، ورئيسُ التحرير يُعانى كثيرًا حين يَجتمع الثلاثة، أو اثنان منهم فى عدد واحد، ويحارُ فيمَنْ يُقدِّم أوّلا، ومَن يؤخر، وأحيانًا يؤثر عدم الجمع على اضطرار.

ودار الحديثُ عن الشعر، فقال: لعلّكَ لاتعلمُ أن لى محاولاتٍ شعرية! قلتُ: إنك تتواضع كثيراً ياسيدى، أنت رائدٌ فى مجال الشعر القصصى، وقد تَرجمتَ بعض قصائد شكسبير شعرًا، وتحررتَ من القافية، فكانَ ذلك

موضعَ مناقشة نقدّية بين الكُتّاب، وأذكرُ أن الأستاذ العقاد قد حفظ لَكَ هذا السبق، وأشارَ إليه فى مقالاتٍ كتبها عن الشعر المرسل، فضحكَ الرجل، وقال: تذكرُ كلّ هذا، ! إنّنى بدأتُ بالتحرر من القافية فى الشّعر القصصى الملحمى، ولكنّى لا أجيزه إطلاقًا فى الشعر الغنائى، لأنّ الأذن العربية قد تعودت على الموسيقى الخارجية التى ترنّ بها القافية، وإذا فقدتْها أحسّتْ بنقص كبير. . .

اللقاء الثالث:

مكثتُ مدرسًا بمدرسة «أبو تيج» الثانوية بالصعيد ثلاث سنوات، وفوجئتُ بأنّ زملائى الذين قضوْا معى هذه المدة، وهذ الحدّ المقررّ للنقل، قد انتقلُوا إلى بلادهم فى الوجه البحرى، وبقيتُ وحدى، وقد طالعتْنى الصحف إذ ذاك بأن الأستاذ محمد فريد أبو حديد قد عُيّن مستشارًا فنيا بوزارة المعارف، فقلتُ فى نفسى: الحمد للّه، إنكَ صاحبُ حَقّ صريح، ولن تطلبَ من الرجل غير الإنصاف فقط، وهو أمر يرحب به، لأنه يدفع ظُلْمًا ويقيمُ عدلاً، فسافرتُ من الصعيد إلى زيارته بمكتبه بالقاهرة، ووجدتُ الزائرين كثيرين، فانتظرتُ حتّى بعد الساعة الواحدة، ثم طلبْتُ لقاءه، فرحّبَ ودعانى على عجل، وقالَ لى: معذرة، فقد أخبرنى السكرتير أنّك تنتظرُ من زمن طويل، ولو كنتُ أعلم لا ستدعيتُك، ولكنْ ماذاَ أصنع فى هؤلاء الذين يَجيئون فى ثوب التهنته بالمنصب، ومع كلّ واحدٍ مطلب متعذرُ التحقيق، أنا لا أرحب بهؤلاء قدر ما أرحّب بشاعرٍ مثلك جاء ليهنئنى تهنئة الأديب للأديب! سمعتُ هذا القول، فقلتُ فى نفسى: لابدّ أن أكتفى بالتهنئة، ولا أتقدّم بظلامتى كيلا أكون واحدًا من هؤلاء!! وانتقل الحديثُ إلى الأدب، فقل لى الرجل: أتعرُف أننّى منعتُ أن تُقَرَّر لى قصّةٌ هذا العام الدراسىّ فى المدارس كيلا يُظنَّ أننى أستغلُّ منصب المستشار، قلْت: إن قصصك الجميلة، تُقررّ على الطلاب فى دروس المطالعة ذات الموضوع من سنوات، قبل أن تجىء إلى الوزارة، فأىّ شبهة فى هذا؟ قال: الاحتياط واجب!

ورأيت أن أستطرد فقلت: إن الطلابَ سيُحرمون كاتبًا رفيعَ المستوى، وقد شرحتُ قصّةَ «زنوبيا» لطلاب القسم الأدبى فاستمتعَ الطلاب معى أكبر استمتاع! قالَ الأستاذ: وأىّ شخصيّة لفتتْ انتباهك من شخصيات قصّة زنوبيا! قلتُ: أكونُ صادقًا لو قلتُ لك: إن شخصيّة الفيلسوف «لونجين» قد شدّتْنى شدا عنيفًا، لأنّ الرجل الكبير قد وقَع فى حبّ كظيم لا يستطيعُ أن يصرّح به، فهو أستاذ الملكة، وقارئُها الدائم، وهو فى خريف حياته، وهى فى الربيع المشرق، وزوجُها الملك البطل الشاب يملأ مجامع تفكيرها، فأين يكونُ موضعُه العاطفىّ منها؟ ولكنها محنة قد انصبّتْ عليه كالبلاء النازل، فأخذ يكابد من حسرات الظمأ المحرق مالا طاقةَ له به، حتىّ لفظ أنفاسه فى معركةٍ حربية فداءً لها! وكنُت أقول ذلك بصوت ينمّ على التأثر، فقالَ الأستاذ: هذا ما عَنيتُه تمامًا حين صوّرتُ صاحب هذه الشخصية، وأنا لا أعلم من تاريخه إلاّ أنه فيلسوفٌ صحبها فى معركتها الأخيرة، ورأى أن يموت فى سبيلها، فقلتُ فى نفسى: إنَّ الروح غاليةٌ عزيزة، وإن الذى يُضحى بنفسه مستشهدًا، لابد أنه يهيمُ بمن يفتديه، وقد وجدْتُ المبرّر لذلك الحب، فالملكة شابّة جميلة مثقّفة، وذاتُ عزيمةٍ صلْبة فى الحكم، ورقة حانية مع حاشيتها الخاصة، ومثلها لابدّ أن تملك قَلْبَ من يُطيل الاجتماع بها أستاذًا، فصديقًا، فَمستشارًا، فإذا أقدم هذا الفيلسوف على الاستشهاد فى سبيلها فهو محب مشغوف!

وانتقل الحديث إلى شجونٍ كثيرة، ووجدتُ الرجل يُؤثر بقائى بعد انتهاءِ الموعد الرسمى للعمل، فشكرتُ له هذا الشعور، وخرجتُ لأكمّل عامًا جديدًا بالصعيد.

أبو حديد الناقد:

كان صديقى الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف عَمل وقتًا ما بدار الكتب المصرية، وكان رئيسه فى العمل هو الأستاذ فريد، فتذاكرْنا مرّة عنه، فقال: إن أعظمَ سمات الأستاذ أنّه ناقد أدبى ممتاز، وله فى جلساتِه الخاصّة ملاحظاتٌ صائبة

على كل كتاب نتعرض له بالحديث، فقلتُ له: إنى أحُسّ أنّ الأستاذ ناقد كبير، فقد قرأتُ له فصولا نقدية عن روايات نداء المجهول، وفرعون الصغير، وشهر زاد الحكيم، وأحلام شهر زاد لطه حسين، فأحسستُ أنه ناقدٌ ممتاز، أمّا أن أعظم سماته الأدبيّة هى النقد، فهذا مالا أوافق عليه، فقال مبتسمًا: سأقولُ له هذا القول وأنقله عنك، قلتُ: وقلْ له أيضًا: إنى قرأتُ ماكتبه بالعدد الخاص من مجلة الثقافة الذى صدر عن العقاد فرأيتُ تحليلاً ممتازًا للقصّة، وتسليطًا قويّاً للأضواء على نقاطٍ مبهمة كانت تحتاج إلى إيضاح، ولكنّى لم أرَ نقدًا للقصّة، مع أنى أعلم أن الأستاذ فريد يخالفُ فى اتجاهه القصصىّ منحى الأستاذ العقاد فى كتابه (سارة)، وكانَ عليه وقد تعرضَ للعقاد القصّاص أن يعلن رأيه فى مذهبه الروائى!

قال الأستاذ فهمى ردا علىَّ: إنّ الأستاذ محمد فريد أبو حديد، كتبَ نقده بعد رحيل العقاد إلى عالم الخلود، إذ صَدر عدد الثقافة بمناسبة ذكرى الأربعين، فلا محلّ للقول بمجاملة الرجل أو محاباته، ولكنَّ الأستاذ فريد مُرهف الحسّ، رقيق الشعور، وقدْ أصدَر العدد كلّه لتحية العقاد بمناسبة رحيله، أفتنتظر منه حينئذٍ أنْ يبدأ المقال الأوّل بنقده، إنه ترك مجال النقد لمن تلاهُ من الكاتبين، واكتفى بالعرض الدقيق للقصّة.

وأظنّ أن الأستاذ فهمى قال بعد ذلك، ولا ضرر فى مخالفة الأستاذ فريد لاتجاه العقاد فى قصّة سارة، فكثيرٌ من النقاد وقفُوا منها موقف النقد، وعدوها صفحة صادقة من التحليل النفسى، ولكنّ قواعد القصّة الفنيّة لم تُطبّق على وجهها الصحيح.

أقول: أظنّ أن الأستاذ فهمى قال ذلك، لأنّى لم أتأكد - بمرور الزمن - أنّى سمعت ذلك منه أو من صديق سواه تحدثتُ معه بشأن سارّة، ولكنَّ الردّ على ذلك واضح، فقواعد القصّة الفنيّة لا يتقيد بها غير المبتدئين، أماّ ذَوُو الحنكة والتجربة فهم أحرارٌ فيما يقصدون من اتجاه.

اللقاء الأخير:

علمتُ أن الأستاذ أصيب فى أواخر حياته بنوعٍ من أنواع الشلل، فأسِفْتُ كثيرًا لمرضه الذى جعلَ أصابعه ترتجف فلا يقدر على الكتابة، ثم استطاعَ معالجوه أن يُبرئوه منه، ولكنّ دلائل الضعف ظلت عالقة بهيكله وسحنته، وقد لمحتُه جالسًا فى مجمع اللّغة ذات صباح، فسارعتُ إلى تحيته، وعجّلتُ بالذهاب كيْلا أُثقل عليه. لقد رأى من واجبه أن يحضر جميع جلسات المجمع، وهو يُعانى ضعف الشيخوخة، لأنّه رجلُ عمل، وصاحبُ رسالة، حتى فى أحرج أوقات البلاء!

* * *